محمد رابح فيسة

مقياس العمار التقليدية ماستر 2

المحور الثاني:

المحاضرة الخامسة : الملامح العامة للعمران التقليدي الصحراوي

1. البنيات التقليدية في الفضاء العمراني الصحراوي.

لمحاولة فهم حركية المجموعات الاجتماعية التي تشكل اليوم التركيبة الاجتماعية لمدن الصحراء لا بد من تحليل وضعها التقليدي، وتلخيص النظرة إليها من خلال أهم المجالات في نظرنا وهي مجال التنظيم الاجتماعي والنشاط الاقتصادي والمجال السياسي ومركباته وأيضا المعتقدات الدينية كونها المجالات الهامة التي لعبت الدور الأساسي في وجود شبكة القصور والمدن ديمومتها ودورها، وفي هذه المداخلة يحتم علينا الموضوع التركيز على مجال البنية الاجتماعية للمجموعة الاجتماعية

يمكن أن نلاحظ أن الإحساس القوي بوحدة القبيلة عند البدو المتمدنين بقي موجودا رغم عشريات من التمدن والتثبيت، هذه الهيكلة الاجتماعية لا تزال فاعلة عند المجموعات الاجتماعية وحتى تلك التي كان تمدنها يمتد إلى الثلاثينات تقدم دلالة لمسناها عبر التقصي الميداني على بقاء هذه الروابط واستمرارها تجمعهم في أحياء معينة في أحياء المدن في شكل تجمع من العائلات من عرش واحد أو فرقة واحدة أو أبناء عمومة في حي واحد، مدينة ورقلة أهم مدن الصحراء الجزائرية تقدم النموذج الواقعي لذلك، إذ أغلب أحيائها ما عدا القصر القديم هي أحياء تمدن البدو. كما أن الروابط التي تجمعهم بمناطقهم الأصلية الجغرافية بقيت قائمة بالرغم من البعد الجغرافي تبقى وحدة القبيلة والعرش هي الهيكل الاجتماعي القائم بمؤسساته التقليدية والرقابة القبلية التي يمارسها كبار السن هذه الروابط بالمنطقة الأصلية.

إن توزيع المجموعات الحالي والقائم أساسا على قواعد سوسيو– إقتصادية، وتاريخية يبقى غير كاف لوحده في حقيقة الأمر لفهم حقيقة البنيات الاجتماعية التي تتشكل في هذه المدن. فمنذ قرون عديدة والعلاقات والبنيات الاجتماعية لمجتمعات الصحراء كانت منظمة من خلال الروابط القرابية التي هي في الأساس تشكل بنية الأسرة ، العائلة، العرش، أين أعضاء كل تشكيل من هذا يدعون الانتماء لجد مشترك (سواء كان واقعيا أم رمزي) من خلال قاعدة سلالية أبوية، والمصاهرات القائمة على الزواج وانضمام الأنثى إلى مجموعة جديدة تشكل التحالفات التي تشكل بدورها "الفدرالية القبلية"، من خلال زواجية داخلية endogamie قوية، أين تصبح العائلات الكبرى هي الناظمة لهذه الرمزية.

في الوضع الحالي هذه التنظيمات الاجتماعية تجد نفسها في المدينة في الأحياء الحضرية في مساكن فردية وجماعية. إن العلاقات السلالية لا تزال تحدد المسار العمراني والفعل الاجتماعي في المدينة وفي الواحات، التملك والسلطة يمران حتماً عبر الانتماءات القرابية التي لا تزال تشكل الحامي للبنية الاجتماعية، ولا تزال تشكل رأسمال اجتماعي فاعل وواقعي. هذه الروابط الاجتماعية هي ليست في الواقع مجمدة. إن التفاعلات بين المجموعات الاجتماعية داخل المدينة، المدن فيما بينها الحضريين القدامى والبدو المتمدنين تؤدي إلى تحالفات جديدة من خلال مصاهرات جديدة، إنها تشكلات جديدة تخترق البنيات التقليدية استجابة لحتميات " المدينية " الجديدة تعيد تعريف الروابط السلالية من جديد من خلال تعقيدها أكثر فأكثر.

إن القراءة المتمعنة في هذه الخلاصات التي قدمها علماء وباحثي علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ابتداء من **دوركهايم، مارسيل موس، ليفي ستراوش، بيار بورديو**، في الجانب النظري**وجاك بيرك**، ومن خلال المعيش والملاحظة الميدانية تشكل لنا القناعة، أنه في غياب سياسة عمرانية وحضرية اجتماعية، انبرى البدو المتمدنين أنفسهم والمزارعون القدامى أيضا من خلال ممارساتهم من خلال استراتيجياتهم الاجتماعية من خلال تمثلاتهم، تعايشهم هم الذين يصنعون مدينيتهم اليوم في مدن الصحراء الجزائرية.

تتلخص هذه المجموعات في نمطين أساسيين:

أ- **المجموعات المدينية:** أو المجموعات الحضرية، علما أن الحضرية، كأسلوب في الحياة والانتظام ليست جديدة في الصحراء، تاريخا عريقا من التمدن والعمران المتكاثف، تحدثنا عنه جميع المصادر التاريخية وآداب الرحلات، عززتها تجارة القوافل التي امتدت منذ القرن الثامن الميلادي إلى الثامن عشر طيلة 10 قرون، كانت هذه المدن والحواضر هي المحطات التجارية للقوافل العابرة لمحيط الصحراء.

تبدأ عمرانية الصحراء من القصور، كأصغر وحدة، القصور مرتبطة بالإنتاج الفلاحي، إذ أن تعبير القصر الصحراوي هو سكن الفلاحين أساسا. هؤلاء، المنسيون دائما من المؤرخين والباحثين، حسب التسميات لقصورهم وأدواتهم، هم مجموعات بربرية قديمة، تمازجت مع أصول إفريقية في فترات تاريخية متباعدة، تشكلت منهم مجموعات فلاحية أصيلة مستقرة ذات مواصفات عالية في التمدن وقيم العمل والنظام الاجتماعي والفنون والحرف، إن ما نراه من بساتين النخيل في أغلب مدن وقصور الصحراء هو من إنجاز هاته المجموعات.

ثم تتدرج التنظيمات الاجتماعية متصاعدة حسب السلم الاجتماعي نحو مجموعات النخب المدينية،هي في الغالب مجموعات حضرية تجارية وحرفية تتخذ من المدن محطات تشرف على حركة قوافل التجارة، أو تمارس الحرف والصناعات اليدوية، مجموعات اجتماعية منظمة ومهيكلة ذات تقاليد حضرية عريقة، أصولها متعدد منها المحلي أو المهاجر، تقاس حسب إشعاع المدينة التاريخية ومكانتها في السلم التجاري أو السياسي والديني. يضاف إلى هذه التركيبة، النخب الدينية من مؤسسي الزوايا أو أحفادهم أم مريديهم كشرائح اجتماعية تخصصت في الجانب الديني الدعوي والثقافي أيضا المرتبط أصلا بالمؤسسة الدينية " الزاوية" في الأغلب كتنظيم انتشر في كل أرجاء الصحراء والمغرب، على رأس كل ذلك الطبقات السياسية أو مجموعات الحكم والتي كان دورها الربط والتوازن بين المجموعات والشرائح وأيضا الارتباط الإستراتيجي مع القبائل والعروش المحيطة بالمدينة الصحراوية أو الواحة و تكون إما نخب محلية تتفاوض سلما أو حربا مع القوى الإقليمية (ممالك أو دول) وأيضا قوى دولية .

2- القصور الصحراوية :

ومن الميزات الأساسية التي تمتاز بها القصور الصحراوية وقوعها فوق قمم الجبال أو سفوحها، أو على هضبات صخرية صلبة تُسهّل عملية الدفاع عنها، وتمكن من استغلال عنصر الماء وتوزيعه بطريقة مضبوطة ومحكمة. كما تتميز بارتباطها الوثيق بالجانب الفلاحي فهي تقع بالقرب من أراض صالحة للزراعة[3]. لذلك فمعظم القصور الصحراوية تحيط بها واحات النخيل التي تعتبر الأساس الإقتصادي لسكانها وتوفر لها مجالا بيئيا ملائما كحواجز للزوابع الرملية.

وتنتشر القصور بمنطقة المغرب العربي على حزام واسع يمتد من حوالي 100 كلم شرق مدينة طرابلس الليبية ويمر جنوبا غرب مسلك جبل نفوسة ثم يتجه نحو الشمال مرورا بالجنوب التونسي حيث قصور تطاوين ومطماطة ثم يتجه غربا نحو الجنوب الجزائري حيث قصور وادي ريغ ومنطقة

– البيوت المعزولة :

تنتشر في مختلف مناطق الصحراء منازل معزولة عن التجمعات العمرانية لكن دون أن تكون بعيدة كثيرا عنها. وأغلب هذه المساكن لا تكون مأهولة إلا في مواسم معينة حسب الحاجة إليها. البعض منها تتواجد في الغيطان (جمع غوط) والواحات وتستعمل عند جني المحاصيل، أو تكون أحيانا مخصصة للخدم. كما يقيم بعض البدو بيوتا منعزلة موسمية قرب المراعي. إضافة لكل هذه الأنماط العمرانية، فقد كانت نسبة كبيرة من سكان الصحراء البدويين يسكنون الخيام ويعيشون حياة التنقل مع مواشيهم طلبا للمراعي والماء. وإن كنا لا ندرجها هنا تحت مسمّيات العمارة فقد أدت وظيفتها السكنية عهودا طويلة ولا تزال.

ب– من حيث الوظيفة :

تصنف العمارة من حيث الوظيفة عموما إلى مدنية، عسكرية، دينية[4]. وفي الغالب تجتمع هذه الأصناف من العمائر في مكان واحد، فنجد في تجمع عمراني واحد كالقصر مثلا عمارة مدنية

يستغلها الأهالي في السكن ومتطلباتهم الإجتماعية والإقتصادية، وعمائر عسكرية كالأسوار والأبراج لغرض توفير الأمن والدفاع عن التجمعات، وعمائر دينية والتي تتمثل في المساجد والزوايا وغيرهـــا. وبطبيعة الحال يمكن إسقاط هذا التصنيف على عمارتنا الصحراوية.

– العمارة المدنية :

تطلق العمارة المدنية على كل المنشآت التي يستخدمها الإنسان لأغراضـــه المعيـــشية العاديـــة، الإجتماعية والإقصادية والثقافية، ويعتبر المسكن أهم مكونات العمارة المدنية والخلية الأساسية المكونة لمختلف التجمعات العمرانية الصحراوية، والتي يقوم عليها تنظيمها وينمو به عمرانها. كما يحتل المقام الأول من حيث الأهمية لاحتياجات الفرد، لأنه يعبّر عن المأوى الذي يكفل له الأمـــن والإســـتقرار ويحميه من ظروف الطبيعة ويسمح له بتلبية حاجاته الاجتماعية. وقد أكدت الشريعة علـــى أهميـــة المسكن في حياة الإنسان كما حرصت على حرية الفرد في اختيار مترله وتحديد صفات البناء والمـــواد المستعملة والقياسات بما يتلائم مع متطلباته فقد ذكر الدينوري في عيون الأخبار ما نصه: "قال يحـــيى بن خالد لابنه جعفر حين اختط دارًا ليبنيه : هي قميصك فإن شئت فوسعه، وإن شئت فـــضيّقه"[1]. وتمتاز المساكن في العمارة الصحراوية القديمة (خاصة القصور) باستجابتها لمبدأ التوافق مع البيئة الحارة ولمبدأ احترام العادات والتقاليد السائدة القائمة على احترام الخصوصية والحُرمة والحياء. حيث تشكل تكتلات متراصة تسمح بتكوين "ميكرومناخ" محلي يوفر الراحة المناسبة للعـــيش في البيئـــة الحـــارة. ويتكون المسكن من عدة مجالات متكاملة ومنفتحة إلى الداخل يتوسطها الفناء (الحـــوش) كمجـــال مكشوف أو نصف مكشوف يسمح بممارسة مختلف النشاطات المترلية في راحة وسَعة.

ومن بين المنشآت المدنية الأخرى المهمة بالقصور نجد السوق الذي يعتبر من المعـــالم الثابتـــة في التجمعات الصحراوية. إضافة لذلك هناك منشآت أخرى تُستغل لأغـــراض مدنيـــة كالـــدكاكين المستعملة لأغراض تجارية ولتقديم الخدمات، والخانات التي ينزل بها الغرباء، ومنشآت تستعمل مـــن طرف السلطة الحاكمة كدار القاضي أو دار الجماعة وغيرها من المرافق التي تتواجد بالقصور الكبيرة.

– العمارة العسكرية :

يمثل الأمن والأمان قيمة أساسية لنشأة المجتمع الحضري المستقر، ويبدأ ذلـــك باختيـــار الموقـــع الجغرافي واتخاذه وسيلة من وسائل حماية التجمعات، إضافة لذلك عمل الإنسان على تشييد عمـــائر

مختلفة للأغراض الدفاعية والعسكرية. وتعد الاستحكامات الدفاعية جزءا حيويا من عناصر التخطيط العمراني قديما، وقد أكد على ذلك الدين الإسلامي وصنفها الفقهاء ضمن "البناء الواجب"[1]. ومن أهم العمائر التي تدخل ضمن هذا النطاق: الأسوار والأبراج والخنادق وغيرها.

- الأسوار : عُرفت أهمية الأسوار في تحصين المستوطنات وتقوية دفاعاتها واستحكاماتها منذ الحضارات القديمة. وقد تميزت أغلب القصور الصحراوية بوجود أسوار لحمايتها، حيث كان يشيّد لهذا الغرض سور أو أكثر. وتختلف مادة البناء المستعملة في الأسوار الصحراوية فاستعمل الرومان والبيزنطيون الحجارة الضخمة المنحوتة والتي لا تزال بعض أثارها بأماكن متفرقة من الزيبان. بينما استعمل سكان القصور الطوب النّيء والحجارة وجذوع النخل لبناء الأسوار وتدعيمها[2]. و لم تكن الأسوار في منطقة دراستنا على حد كبير من الضخامة[3]، ربما لكونها بعيدة عن مراكز الدول الكبرى التي تشيّد عادة أسوارا ضخمة لمواجهة الجيوش الكبيرة، ولكون التجمعات العمرانية بالمنطقة صغيرة لم تصل مستوى المدن الكبرى التي تحتاج وتتحمل تشييد الأسوار الكبيرة. ومع ذلك فهي قد ضمنت لساكنيها الحد الأدنى من الأمن.

- المداخل : تعد المداخل من أهم أجزاء سور المدينة للمدافعين والمهاجمين على حد السواء كونها تمثل واحدة من نقاط الضعف في سور المدينة[4]. لذلك فقد شُيدت مداخل المدن والقصور الصحراوية بأشكال وأنماط تجعل منها صعبة المنال للغريب، وتدعم بأبواب تغلق عند الحاجة كما توفّر لها الحراسة في بعض الأحيان.

- الأبراج : الأبراج من العناصر المعمارية الدفاعية المهمة الملحقة بأسوار المدن وبجدران القلاع والحصون وبالقصور، وأحياناً تكون مستقلة بذاتها. وتكون مربعة أو مضلعة أو مستديرة الشكل[5]. لكن وجودها في العمارة الصحراوية قليل وقد اختفت منذ مدة طويلة كما هو الحال في قصر ورقلة الذي كان على سوره 41 برجا، كما تستخدم منارات المساجد كأبراج مراقبة أحيانا[6].

■ الخنادق : استعملت الخنادق منذ القديم في حماية المدن، واكتشف أقدمها بتل الصوان بالعراق ويعود للألف السادسة قبل الميلاد[1]. وقد لجأ سكان الصحراء إلى هذه الطريقة لتحصين قصورهم ومدنهم وكان الكثير منها مزود بخندق يحيط بالأسوار ويملأ بالماء لمزيد من المنعة في حالة الأخطار. ومن ذلك قصر ورقلة وتماسين وتقرت وبسكرة وغيرها.

■ القصبات : تتميز الكثير من القصور الصحراوية بوجود قصبة أو قصبتين، وتكون عموما على شكل قلعة محصنة داخل القصر تستخدم من قبل الحاكم كمقر له ولأعوانه، أو من الأهالي لحفظ بعض الضروريات التي يحتاجونها وقت الشدة[2].

– العمارة الدينية :

تعتبر المنشآت الدينية من أهم ركائز أي مجتمع ومنها المجتمع الصحراوي، مما لها من دور هام في توجيه وتنظيم المجتمع، وتتمتع بالاحترام والتقديس من طرف الجميع. بل كثيرا ما تكون نشأة التجمعات العمرانية في الصحراء انطلاقا من منشأة دينية كزاوية أو ضريح وليّ صالح. وتتمثل العمارة الدينية خصوصا في المساجد أو الجوامع، الزوايا، الكتاتيب، الأضرحة.

■ المساجد : أهم العمائر الدينية، وهو مؤسسة دينية تكتسي طابع القداسة وتحظى بالولاء من طرف المجتمع. إضافة إلى كون المسجد وحدة معمارية مميزة، فانه يمتلك خاصية هيكلة النسيج العمراني وهذا نظرا لقيمته العقائدية فمركزية المسجد عمرانيا بحيث تحفه البيوت هو تعبير مادي أو تزكية ودعم لتلك الوحدة المقدسة التي تربط المسلمين ببعضهم. وغالبا ما نجد في التجمعات الصحراوية (القصور) مسجدا جامعا يطلق عليه عادة اسم المسجد العتيق يتوسط القصر ويقصده جميع السكان إضافة إلى عدد من المساجد الثانوية تنتشر بمختلف أحياء القصر وتؤدي وظيفتها محليا[3]. أما مواد البناء التي تستعمل في تشييد المساجد فتكون عموما مماثلة لتلك المستخدمة في المساكن المحيطة به، فيستخدم الطوب والطين أو الحجارة والجص إضافة لجذوع النخل ومواد محلية أخرى، لكن كثيرا ما نجد السكان يجتهدون من أجل توفير أحسن المواد المتاحة لبناء المسجد وبأجود التقنيات[4] كما تُزوّد المساجد ببعض العناصر المميزة لها كالقباب والمنارات.

- الزوايا : لفظ الزاوية مشتق من فعل زوى أو زوأ ويقال انزوى القوم إلى بعضهم البعض إذا تدانوا وتضاموا [1]. وكانت الزاوية في البداية جهة بالمسجد تقام بها حلقة تدريس. وانتشرت الزوايا في العالم الإسلامي خاصة في إيران ومصر والأقطار العثمانية حيث تسمى بالتكايا[2]. أما في المغرب الإسلامي فالزاوية عبارة عن تجمع من البنايات ذات طابع ديني بحت، مفتوحة الأبواب للفقراء وعابري السبيل، من بين أهدافها تحفيظ القرآن الكريم للطلبة وتعليمهم كل ما يتعلق بالدين الإسلامي الحنيف لذلك فهي تضم غرفا للإيواء، ومسجدا تقام به الصلاة وأحيانا ضريح صاحب الطريقة أو أفراد عائلته[3]. بالإضافة للأهداف الدينية والتعليمية والإجتماعية للزوايا فإنها تشكل ملاذا للسكان يلجؤون إليه هروبا من المشاكل الإجتماعية والسياسية. وفي أحيان كثيرة يتعدى دورها إلى تنظيم المجتمع وحمل لواء الفتوحات والثورات. وتنقسم الزوايا في الجزائر عموما والصحراء خصوصا إلى ثلاثة أنواع [4]:
  - زوايا المشايخ : وتكون تابعة لأحد أصحاب الطرق كالزاوية التيجانية بتماسين.
  - زوايا المرابطين : هي ملكية جماعية تحبس مواردها على طلبة العلم.
  - زوايا الطلبة : زوايا يتمتع فيها طلبتها بالاستقلالية في التسيير.

- الكتاتيب : كان التعليم يتم في العهود الأولى للإسلام بالمساجد التي كانت مؤسسة دينية وتعليمية وثقافية واجتماعية وسياسية في آن واحد. وخلال العصر الأموي وبعده ظهر الكُتّاب كمكان خاص للتعليم وعمّ أقطار العالم الإسلامي[5]. ويسمى في بعض المناطق "المحضرة" أو "الزاوية" وهذا يختلف عن الزاوية بالمفهوم السابق. وقد قامت الكتاتيب بدور كبير في التعليم وتحفيظ القرآن ونشر الثقافة الإسلامية بالمجتمع الصحراوي. وكانت عبارة عن قاعة لا تختلف عن بقية البيوت، وغالبا ما تكون ملحقة بالمسجد وأحيانا منفصلة عنه بل لا تعدو أحيانا على أن تكون حلقة في العراء. ويتولى معلم يدعى شيخ أو طالب بتدريس الصبيان ويعيش على تبرعات السكان.